إلى طلبة التوجيهية :

٢ ـ شاعران فى المنفى

للأستاذ أحمد محمد الحوفى

تمهيد — موضوعات القصيدتين — الصور والخيال — الأسلوب — كلمة عامة ... ...

وفى كلتا القصيدتين فخر ، ولكنه أيضاً صورة من نزوع الشاعر وميله ، فالبارودى رجل الجيش والحرب يفتخر بشجاعته وبلائه فى الحرب ، ولم تزايله حماسته فى منفاه ، فسيفه هنالك صاحبه الوحيد ، يحمله جسمه القوى الشديد ، وهو سيف متعطش إلى الدم ، حتى ليشرئب من الغمد إذا لمسه البارودى متلهفا إلى أن يضرب به . ويفخر بوفائه، وإقدامه ، وصواب رأيه إذا استبهم الصواب ، وربما كان غرضه هنا تعزيز رأيه الذى أبداه قبل الثورة العرابية متخوفاً من سوء عقباها ، ويكرر الفخر بشجاعته وتقدير الأبطال له حتى ليفدونه بأنفسهم ، وببلاغته وسحر شعره ، لكنه غالى فى قيمة هذا الشعر إذ زعم أنه يضارع أبلغ شعر سابق ، ويكبر أن يشبهه شعر لاحق ، وجرته محاكاته للقدماء إلى تقدير لذاذة شعره بأنها ألذ من الحداء ، وختم الفخر بأنه قوال وفعال وغيره يقول ولا يفعل .

ونخره بنفسه وبشعره فى مجال الشكوى تسرية عن نفسه من ناحية ، ومحاكاة لأبى فراس الحمدانى وهو أسير من ناحية . قال :

ولا صاحب غير الحسام منوطة حمائله منى على عاتق صلد
إذا حركته راحتى لمة تطلع نحوى يشرئب من الغمد
سجية نفس لا تخون خليلها ولا تركب الأهوال إلا على عمد
وإنى لمقدام على الهول والردى
بنفسى ، وفى الإقدام بالنفس ما يردى
وإنى لقوال إذا التبس الهدى
وجارت حلوم القوم عن سنن القصد
فإن صلت فدّانى الكمى بنفسه وإن قلت لبّانى الوليد من المهد

ولى كل ملساء المتون غريبة إذا أنشدت أفضت لذكر بنى سعد
أخف على الأسماع من نقم الحدا
وألطف عند النفس من زمن الورد
غدرة تمحو بأذيال حسنها
أساطير من قبلى ، وتعجز من بعدى
كذلك إنى قائل ثم فاعل فعالى ، وغيرى قد ينير ولا يسدى

أما شوقى شاعر مصر المنوه بأمجادها ، المعتز بماضيها ، العليم بتاريخها فقد افتخر بسالف عهدها ، فالدهر منذ طفولته لم يحتفل بغير الفراعنة ، ولم يعرف أقوى منهم ، وهم صبر على النوائب وفيون بالعهد لا يتلونون كالعرابى، وهو هنا يشير إلى وفائه للخديو عباس ويعرض بمن تلون من أصدقائه أو يعرض بالإنجليز أصحاب السياسة التقلبة ، والشمس لم تشرق على ملك عظيم كمصر ، وقد عبدت على ضفاف النيل ، ورأت ملوكا له أبناءها الفراعين ، وإنه لواد جميل خصيب تشرق الشمس عليه فتكسوه أشجاراً وورداً وحريراً ، ونحن الفراعنة حكمنا الأرض قبل الرومان ، وكنا رواد العالم ، ولم يفت شوقى أن يعرج على الأهرام الخالدة ، فوصفها هذا الوصف البارع : بناها الدهر لا الإنسان الفانى ، وعمرت مقاصيرها أربعة آلاف عام تقوضت فيها عروش الملوك وهى باقية ، وكأنها وبحر الرمل حولها سفن وأراها اليم إلا فلوعها ، وكأنها والضحا يتلألأ فوقها كنوز فرعون يزنها على موازين كبار فقطتها وتكومت فوقها . قال :

لم يجر للدهر إعذار ولا عرس إلا بأيامنا أو فى لياليـنا
ولا حوى السعد أطفى فى أعنته منا جياداً ولا أرخى ميادينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا
ولم يهن بيد التشتيت غاليـنا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق إذا تلون كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت
فى ملكها الضخم عرشا مثل وادينا
ألم تؤله على حافاته ، ورأت عليه أبناءها الغر الميامينا ؟
إن غازلت شاطئيه فى الضحا لبسا
خمائل السندس الموشية الفينا

وبات كل مجاج الواد من شجر لوافظ القز بالخيطان ترمينا
وهـذه الأرض من سهل ومن جبل
قبـل القياصر دناها فراعيـــنا

ولم يضع حجراً بان على حجر في الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائط نهضت به يد الدهر لا بنيان فابينا
إيوانه الفخم من عليا مقاصره يفنى الملوك ولا يبقى الأواوينا
كأنها ورمالا حولهـا اللطمت سـفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحا ذهباً كنوز فرعون غطين الموازينا

وهذا الفخر بماضي الوطن من شاعر مبعد عنه حزين لما الم به من أحـداث وكوارث قوى الصلة بمحور القصيدة ، وبنفسية الشاعر المكروب من الحاضر المتجهم ، فيرجع إلى الماضي المشرق لأنه يجد فيه عزته وراحته وسلوانه .

وأخيراً يتحدان في الغزل المصطنع من كليهما في هاتين القصيدتين ، فالبارودي ينعت حبيبته بالوفاء ، ويصفها بالجمال وجهاً وخصراً ، ويعرض حالة ماضيه إذ أسرته بنظرها الساحر فعلق بها وتبعها ، فتظاهرت بالدهشة من حماقته كأنها لا تعلم أنها الجانية ، ويرجوها ألا تصـد عنه حتى لا تعذبه وتقعده عن طلب المجد ، وألا تظن أن في قلبه قدرة على تحمل مزيد من الحب ، ويصور مقدار خضوعه لها بأنها لو أمرته أن يهلك نفسه لفعل . قال :

قلست بناس ليـلة سلفت لنا بواديه ، والدنيا تغر بما تـدى
إذالعيش ريان الأماليد،والهوى جديد وإذ لمياء صافية الود
منعمة ، للبـــدر ماق قناعها وللغصن مادارت به عقدة البند
سبتني بعينيها ، وقالت لتربها ألا ما لهذا الغر يتبعني قصدى

ولم تدر ذات الخال — والحب فاضح —
بأن الذى أخفيه غـير الذى أبدى

حنانيك إن الرأى حار دليله فضل ، وعاد الهزل فيك إلى الجد
فلا تسألى منى الزيادة فى الهوى رويداً،فهذا الوجد آخر ماعندى
وهأنا منقاد كما حكم الهوى لأمرك فاخشى حرمة الله والمجد

فلو قلت : قم فاصعد إلى رأس شاهق
وألق إذا أشرفت نفسك للوهـــد
لألفيتها طوعاً لعلك بعـدها تقولين : حيا الله عهدك من عهد

وشوق تنزل في محل بحبيبته التي يعف في حبها ، فهو يحن إليها حنيناً لا يشوبه تدلل ، وهو غير مستطيع صبراً على فراقها ، وهو جلد ولكن الحزن غلبه لأنه أبعد عنها بالنفي من وطنه وحصنه ، وليله طويل لا نهاية له تتناوبه فيه الذكريات الحلوة والمرة فتميته وتحييه ، وتكاد آلام الفراق ترديه ، ولا يفتأ يبكي ويئن ، ويراقب النجوم حتى ترثى له أو تمل مراقبته وتتعب من السير ، ولكنه في النهاية يتكلف الصبر أمام الأعداء حتى لا يشمتوا . قال :

يا من نغار عليهم من ضمائرنا ومن نصون هواهم في تناجينا
ناب الحنين إليكم في خواطرنا من الدلال عليكم في أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا في النائبات فلم يأخذ بأيدينا
وما غلبنا على دمع ولا جـلد حتى أتتنا نواكم من سياسينا
ونابني كأن الحشر آخره تمثلنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوى دجاه يجرح من فراقكم يكاد في غلس الأسحار يطوينا
إذا رسا النجم لم نرقأ محاجرنا حتى يزول ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسي الدواهي من كواكبه حتى قعدنا بها حسرى تقاسينا
يبـدو النهار فيخفيه تجلدنا للشامتين ويأسوه تأسـينا

ويتفرد شوقي بتمجيده عرب الأندلس والبكاء على ملكهم المضيع ، ولم يعرج البارودي في قصيدته ولا في غيرها على مجد المسلمين بالهنـد وأثرهم في تحرير عشرات الملايين من أبنائها من الوثنية ، وجوبهم البحار قبـل كولمبس وماجـلان ، وهي ينابيع ثرة بالذكريات يترع بها خيال الشاعر لو أنه مثقف وبصير بالتاريخ .

ثم يتميز بأن شكر لمصر برها به ، وإرسالهـا الهدايا والأموال إليه ، وأجاد تصوير حالها حين اضطرت إلى نفيه محبة له حريصة على سلامته .

ثم يفترق من البارودي بالتمهيد لموضوع قصيدته بمناجاة الحمام النائح ويختلف عنه أيضاً في تخيله نسمة عبقة قد سرت من مصر إليه فأنعشته ، ثم ينفرد بوصفه الرائع لجمال الطبيعة في مصر ، ووصفه أهرامها .

(البقية في العدد القادم)

أحمد محمد الحوفي

٢٨٠٣٩